إن الحمد لله نحمده، و نستعينه، و نستغفره, و نتوب إليه, و نعوذ بالله من شرور، أنفسنا و سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له و من يضلل فلا هادي له، و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد يُحيِّ و يميت و هو على كل شيءٍ قدير. و أشهد أن محمداً عبده و رسوله، خير الخلق و البشر. أشهد أنه بلَّغ الرسالة و نصح الأمة و دعى إلى اللهِ حتى أتاه اليقين. صلى الله عليه و سلم، و على آله و أصحابه، و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين و سلم تسليماً كثيراً.

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾ النساء: ١

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢ ﴾ آل عمران.102

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١ ﴾ الأحزاب: ٧٠ - ٧١

أما بعد:

ألا إنَّ خيرَ الكلامِ كلامُ الله، و خيرُ الهدي، هديُ محمدٍ بن عبد الله. و إنَّ شر الأمور محدثاتها و كلُ مُحدَثَةٍ بدعة و كل بدعةٍ ضلالة.

وإن فروعَ هذه الأخلاق الإسلامية الراقِيَة كثيرةٌ ومُتشعِّبة، ولكنها تجتمِعُ في أصولٍ عظيمةٍ، وأركانٍ متينةٍ، تلتَقِي فيها كلُّ الآداب النبوية والأخلاق المُصطفوية، وما تعارَفَت عليه العقولُ الصحيحةُ والعاداتُ الحسنة.

هذا وإن مِن أعظم هذه الأصول الجامِعة المانِعة: أصلاً عظيمًا يجتمِعُ تحتَه ما تفرَّق، وينتَظِمُ في سِلكِه ما تشعَّب، ألا وهو: المُروءةُ .. وما أدراكُم ما المُروءة؟! إنها منبَعُ الخيرات، ومُلتَقَى الآداب، وعِمادُ الحياة الشريفة الحُرَّة، وجِماعُ المحاسِنِ والكمالاتِ، وأساسُ

الإنسانية، وكمالُ الرجولية. و لأهمية المروءة جعلها كثير من المحدثين شرطاً لقبول رواية راوي أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم.

المروءة سجيَّة جُبلت عليها النفوس الزكيّة، و شِيَمٌ طُبعت عليها الهمم العليَّة، و ضعُفَت عنها الطباع الدنيَّة، فلم تُطِقْ حمْلَ أشراطها السنيَّة، المروءة هي حِلية النفوس، و زينة الهِمم.

فمن تعريفات المروءة: هي غلبة العقل على الشهوة و هي استعمال ما يُجمِّل العبدَ و يزيِّنه، و تَركِ ما يُدنِّسه و يَشينه. فهي استعمال كل خلق حَسن و اجتناب كل خُلُق قبيح. هي تجنب للدنايا و الرذائل، من الأقوال و الأخلاق و الأعمال.

فمروءة اللسان: حلاوته و طِيبته و لينه، و اجتناء الثمار منه بسهول و يُسر.

و مروءة الخُلُق: سَعَتُه و بسْطه للحبيب و البغيض.

و مروءة المال: الإصابة ببذله و انفاقه مواقعه المحمودة عقلاً و عرفاً و شرعاً.

و مروءة الجاه: بذله للمحتاج إليه.

و مروءة الإحسان: تعجيله و تيسيره و توفيره، و عدم رؤيته حال و قوعه، و نسيانه بعد وقوعه. فهذه مروءة البذل.

أما مروءة الترك: فترك الخصام، و المعاتبة، و المطالبة و المماراة، و الإغضاء عن عيْب ما يأخذه من حقِّك. و ترْك الاستقصاء في طلبه، و التغافل عن عَثَرات الناس، و إشعارهم أنَّك لا تعلم منهم عثرة، والتوقير للكبير، و حفظ حُرمة النظير، و رعاية أدب الصغير.

و في صحيح مسلم: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:

خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.

قال النووي في شرح صحيح مسلم: معناه: أن أصحاب المروءة و مكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا و فقهوا، فهم خيار الناس.

و قال صلى الله عليه و سلم:

أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهِم، إلَّا الحدود[1]. قال الشافعي: و ذوو الهيئات الذين يُقالون عَثَراتهم: الذين ليسوا يُعرفون بالشرِّ، فَيَزِلُّ أحدهُم الزَّلة). و هم أهل المروءات.

رُفِع إلى عمر بن الخطاب رجل في جُرْمٍ، فأراد أن يُعاقبه، فأُخبِر أن له مروءة، فقال: استوهبوه من صاحبه.

قال الشاعر:

و إذا الحبيبُ أتَى بذنبٍ واحدٍ جاءَت محاسِنُه بألفِ شفيعِ

و قد قام أهل العلم باستنباط المروءة من القرآن الكريم.

قيل لسفيان بن عُيينة: قد استنبطت من القرآن كلَّ شيءٍ، فأين المروءة فيه؟ فقال: في قوله تعالى:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ الأعراف: ١٩٩

ففيه المروءةُ و حُسنُ الأدبِ و مكارمُ الأخلاقِ، فَجمَعَ في قوله (خُذِ العفو) صلة القاطعين، و العفو عن المذنبين، و الرِّفقِ بالمؤمنين، و غير ذلك من أخلاق المطيعين. و دخل في قوله: و (أَمُر بالعرف): صلة الأرحام، و تقوى الله في الحلال و الحرام. و غضُّ الأبصار و الاستعداد لدار القرار. و دخل في قوله: (و أعرض عن الجاهلين): الحضُّ على التخلُّق بالحلْم، و الإعراض عن أهل الظلم، و التنزُّه عن منازعة السفهاء، و مساواة الجَهلة و الأغبياء، و غير ذلك من الأخلاق الحميدة، و الأفعال الرشيدة.

[1] صحيح: أخرجه أبو داود و غيره و صححه الألباني.

و سُئل سفيان الثوري عن المروءة: ما هي؟ فقال: الإنصاف من نفسك و التفضُّل: قال تعالى:

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ النحل: ٩٠

(إن الله يأمر بالعدل)، وهو الإنصاف، و (الإحسان) و هو التفضُّل، و لا يتمُّ الأمر إلا بهما، ألا تراه لو أعطى جميع ما يملِكُ و لم يُنصف من نفسه، لم تكن له مروءة؟! لأنه لا يريد أن يُعطي شيئاً إلا أن يأخذ من صاحبه مثله، و ليس مع هذا مروءة.

و قد جمعَ الله ـ سبحانه ـ في عدّة أياتٍ مُحكَماتٍ خِلالاً كثيرة من خِلالِ المروءة كما في قوله سبحانه و تعالى في سورة الأنعام الأيات 151 إلى 153:

﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ الأنعام: ١٥١ ــ ١٥٣

ومِن أجمل صِفاتِ أهل المُروءات: الحِلمُ والرَّزانة، والتثبُّت والتأنّي والهُدوء، والبُعد عن الطَّيش والعجَلَة والنَّزَق والتهوُّر، وخِفَّة العقل عند حُلول الحوادِثِ والنَّوائِب. و سنتعرَّض في الخطبة القادمة للإمورِ التي تساعد على التحلي بالمروءة.

و ذّكرَ أهل العلم الكثير من خورام المروءة إن نذكر منها على سبيل المثال: أن يكون المرءُ داعِيةَ شرٍّ وفوضَى وفساد، أو يكون مِن الهَمَجِ الرَّعاع أتباعَ كلِّ ناعِقٍ، يَمِيلُون مع كل رِيحٍ، لم يستضِيئُوا بنُور العلمِ والحكمةِ، ولم يلجَأوا إلى رُكنٍ وثيقٍ مِن الحُكماء الحُلماء. و أن يعلن الفسق، أو إفساد المال، و إكثار المضايقة في اليسير الذي لا يُستقصى فيه، و منها استخدام الضيف، أو الاستخفاف بالناس و التشهير بهم و خاصة العلماء و الدُّعاة، و تحديث الناس بمُباضَعَة و جِمَاع الزوجة، تعاطي الإنسان ما لا يحسنه، و دعواه معرفة ما لا يعرفه، جَعلُ النفس مسخرةً بحيث يُضحك به في كلامه أو لباسه و أيضاً الحرص و الحسد و غيرها الكثير لو أوردناها لطالَ بنا المقام.